دلائل الإعجاز في القراءات

إعداد
أ.د عبد الله بن غزي البراق
جامعة أم القرى

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنه لا يخفى على أكثر المسلمين اليوم أن القرآن معجزة من عند الله جل وعلا لإثبات نبوة النبي ﷺ، وأن وجوه إعجازه كثيرة، ومن وجوه إعجازه نزوله على سبعة أحرف وقراءات مختلفة تسهيلاً على الأمة، وهذا ما

دل عليه قول النبي ﷺ في حديث السبعة الأحرف: «**أسال الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك**»(١)، حتى خفف الله عنهم بنزوله على سبعة أحرف كلها شافٍ وافٍ.

والكلام على إعجاز القرآن بدأ مبكراً، وأفردت تآليف في هذا الشأن منذ بداية القرن الرابع، منها: كتاب إعجاز القرآن لمحمد بن زيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)(٢)، ثم تتابعت المؤلفات بعد ذلك وكثرت كثرة لا تكاد تُحصى قديماً وحديثاً، وهذا يدل على أهمية موضوع إعجاز القرآن، ثم إن البحث في إعجاز القرآن يعطي شعوراً طبيعياً بالإذعان لهذا الكتاب العظيم وتعظيمه في النفوس أكثر: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

وأما المؤلفات في هذا الموضوع بالذات «دلائل الإعجاز في القراءات» فعلى حسب علمي أن هناك بعض البحوث والرسائل تناولت هذا الموضوع، قد ذكرتها في المبحث الرابع من الفصل الثالث من هذا البحث، على أن هناك كتاباً من تأليف الشيخ صبري الأشوح، بعنوان: «إعجاز القراءات القرآنية»(٣)، لكن بعد تصفح الكتاب، وجدته يتحدث عن تاريخ القراءات والقراء ومدارس القراءات في الأمصار ونحو ذلك، ولم أجد فيه معنى الإعجاز الذي أريد، علماً بأن هذا العنوان قد اقترحته على المؤلف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فوافق عليه.

وبحثنا هذا عبارة عن قسمين، قسم وصفي وهذا هو الفصل الأول والثاني، الذي تحدثت في الفصل الأول عن القراءات، تعريفها وفوائدها، والفرق بين القراءات والقرآن، وفي الفصل الثاني الكلام عن الإعجاز

(١) رواه مسلم ٨٢١.

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٦٦، والكتاب في عداد ما فقد من تراثنا الإسلامي.

(٣) طبع بمكتبة وهبه بالقاهرة، عام ١٤١٩هـ.

بتعريف المعجزة، وبعض المصنفات في هذا الشأن ثم بعض الأوجه التي ذكرها العلماء في إعجاز القرآن.

ثم القسم الثاني من البحث، وهو كالتطبيق لهذا العلم، وهو بعض دلائل الإعجاز في القراءات.

وهذا هو عنوان الفصل الثالث وذكرت فيه أربعة من أوجه الإعجاز في القراءات:

الوجه الأول: اختلاف القراءات وثبات هذا الاختلاف عبر العصور.

الوجه الثاني: احتمال رسم المصحف للقراءات المختلفة.

الوجه الثالث: لا تضاد بين القراءات مع اختلافها.

الوجه الرابع: الإعجاز البلاغي في القراءات.

ونظراً لأن هذا القسم، وليد النظر والتأمل في القراءات وأوجه الإعجاز فيها، صار مختصراً لضيق الوقت.

واعتمدتُ في هذا البحث على كتب علوم القرآن التي تحدثت عن موضوع إعجاز القرآن، وبعض كتب التفسير التي لم تخل من الكلام على هذا الموضوع، ومراجع أخرى لا غنى للباحث عنها ككتب الحديث ومعجم اللغة وغيرها.

وأسأل الله العلي القدير أن ينفعني بهذا البحث وأن يجعله من طلب العلم الذي هو خير ما يُتعبد الله به.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول
القراءات وفضلها وعلاقتها بالقرآن

المبحث الأول: تعريف القراءات.

المبحث الثاني: فضل علم القراءات.

المبحث الثالث: علاقة القراءات بالقرآن.

المبحث الأول:
تعريف القراءات

❊ ❊ ❊

المطلب الأول: القراءات لغة

القراءات جمع قراءة، والقراءة في اللغة مأخوذة من مادة (قَرَأ)، و(قَرَأ) في اللغة لها عدة معانٍ، والذي يهمنا هنا: (قَرَأَ - قِرَاءَةً)، بمعنى: جمع، وقرأت الشيء قرآناً، أي: جمعته، وضممت بعضه إلى بعض(١).

❊ ❊ ❊

المطلب الثاني: القراءات في اصطلاح القراء

وأما تعريفه في اصطلاح أهل هذا الفن، ففيه أكثر من تعريف، وجميعها متقاربة، ولعل من أحسنها وأوضحها وأجمعها ما ذكره العلامة أحمد بن محمد البَنَّا الدمياطي (ت١١١٧هـ)، في كتابه الفذ: «إتحاف

(١) تاج العروس مادة (قَرَأَ) (١٠٣/١).

الفضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر»، حيث قال: هو علم يُعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى، واختلافهم في الحذف والإثبات، والتحريك والتسكين، والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبداع، وغيره من حيث السماع.

أو يقال: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها، معزواً لناقله. اهـ[(١)].

المبحث الثاني:

فضل علم القراءات

فضل علم القراءات لا شك فيه، بل هو من أشرف العلوم وأفضلها، وذلك لتعلقه بأشرف وأفضل الكلام، ألا وهو كلام الله ﷻ (القرآن الكريم)؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**»[(٢)].

ويقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ):

ومن تعلم القرآن عظمت قيمته[(٣)].

ثم إن الباحث في علم القراءات يستفيد فوائد عظيمة ـ وهذا مما يدل على فضل هذا العلم وشرفه ـ ومن تلك الفوائد:

١ ـ أن علم القرآن يُحتاج إليه في علم التفسير، إذ كثير من القراءات تُوضِّح معنى القراءة الأخرى[(٤)].

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (٦٧/١)، وراجع منجد المقرئين ص٤٩، والبدور الزاهرة للقاضي ص٧، وغيرها من المراجع.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه برقم ٨١٧، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٤/١٠).

(٤) انظر أمثلة مثل: رسالة د. محمد بازمول «القراءات وأثرها في الأحكام والتفسير».

٢ ـ التخفيف عن هذه الأمة بتعدد وجوه القراءات في الآية الواحدة[١]، وهذه من أعظم فوائد هذا العلم.

٣ ـ ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار[٢].

٤ ـ القراءات وتنوعها دليل باهر وبرهان واضح على صدق النبي ﷺ، إذ مع كثرة القراءات وتنوعها، لم يتطرق إليها تضاد ولا تناقض، بل يصدق بعضها بعضاً.

٥ ـ إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم في تتبع معاني القراءات، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ واستخراج كمين أسراره وخفيِّ إشارته.

وغير ذلك من الفوائد في هذا العلم الجليل.

المبحث الثالث:

علاقة القراءات بالقرآن

عندما نتحدث عن القراءات وأوجه الإعجاز فيها، لا بد أن نعرِّج على العلاقة بين القراءات والقرآن، فهل هما بمعنى واحد؟ أم كل واحد من المفهومين له مدلول خاص ومعنى خاص[٣]؟

للعلماء في ذلك أقوال:

أ ـ ذهب الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (ت٨٩٤هـ)، إلى أنهما حقيقتان متغايرتان، ودليله:

«أن القرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز،

(١) كما ثبت ذلك في صحيح مسلم ٨٢٠، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
(٢) وهذا هو موضوع بحثنا: «دلائل الإعجاز في القراءات».
(٣) انظر: صفحات في علوم القراءات ص٢١ ـ ٢٤.

والقراءات: اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها.

ولا بد فيها من التلقي والمشافهة؛ لأن فيها أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة(١).

وتبع الزركشيَّ في ذلك الإمامُ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني (ت٩٢٣)، في كتابه الشهير: «لطائف الإشارات»(٢).

والإمام شهاب الدين أحمد ابن البنا الدمياطي (ت١١١٧هـ)، في كتابه: «إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر»(٣).

ب ـ وذهب الشيخ الدكتور محمد سالم محيصن إلى أنهما حقيقتان بمعنى واحد، وذلك لأن القرآن مصدر مرادف للقراءة، والقراءات جمع قراءة، إذاً هما حقيقتان بمعنى واحد، كما أن أحاديث نزول القرآن على الأحرف السبعة تدل دلالة واضحة على أنه لا فرق بينهما، إذ كل منهما وحي منزل(٤).

وإذا أمعنا النظر، نجد القراءات نوعين:

مقبولة، وهي ما توفر فيها شروط القراءة المقبولة من حيث(٥):

١ ـ صحة السند أو تواتره.

٢ ـ أن يحتملها رسم المصحف.

٣ ـ أن توافق العربية.

---

(١) البرهان (١/٣٩٥).

(٢) انظر: لطائف الإشارات (١/١٧١ ـ ١٧٢).

(٣) انظر: الإتحاف (١/٦٩).

(٤) في رحاب القرآن (١/٢٠٩) (نقلاً عن صفحات في علوم القراءات ص٢٢).

(٥) انظر: منجد المقرئين ص٧٩، النشر (١/٩ ـ ١٤).

فهذه القراءة المقبولة هي القرآن، أما إذا اختل شرط منها، فإنها تُعد قراءة شاذة، وهي بذلك تغير القرآن، ولا تصح الصلاة بها ولا يُقْرَأ بها للتعبد وغير ذلك من أحكام القراءة الشاذة. فهي هنا غير القرآن، والله أعلم[١].

(١) انظر: صفحات في علوم القراءات ص٢٣ ـ ٢٤.

الفصل الثاني
إعجاز القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف المعجزة.

المبحث الثاني: عناية العلماء بإعجاز القرآن.

المبحث الثالث: أوجه الإعجاز في القرآن.

المبحث الأول:
تعريف المعجزة

جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يد كل نبي من أنبيائه معجزة، يظهر بها على قومه، وتكون دليلاً على صدقه في أنه مرسل من الله تعالى.

وقد كانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه، حتى يكون تحديه لهم فيما يعرفون وفيما يتقنون، ولئلا يتذرعوا بعدم معرفتهم لهذا الشأن الذي جاء به النبي من عند الله ، وليكون التحدي أعظم وأشد وأبلغ في النفوس.

فكانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما نبينا ﷺ فجاء في زمان قد بلغت الفصاحة والبيان مبلغها عند أولئك القوم[(١)]، وصاروا يتنافسون فيها، ويعرفون لأهلها حقهم وقدرهم.

وكأن هذه إرهاصات من الله العلي القدير، لخروج هذا الكتاب العظيم الذي لا يُدرك شأوه، والذي هو معجزة رسولنا ﷺ الخالدة، والذي لا ينضب معينه ولا تنتهي وجوه إعجازه، وهذا من إعجازه.

(١) الإعجاز البلاغي لمحمد أبو موسى ص١٥.

والمعجزة في اللغة مأخوذة من (عجز)، قال: العلامة أحمد بن فارس (ت٣٩٥) في كتابه: «معجم مقاييس اللغة»: (عجز) العين والجيم والزاي، أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضَّعْف، والآخر على مؤخَّر الشيء[(١)].

والذي يهمنا هنا هو المعنى الأول، وهو الضعف، ومنه المعجزة.

وقال مجد الدين الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللهُ (ت٨١٧هـ): ومعجزة النبي ﷺ: ما أعجز به الخصم عن التحدي، والهاء للمبالغة. اهـ[(٢)]. قلت: مثلها في قولهم: علاَّمة ورُحَلة، الهاء فيها للمبالغة.

وأما المعجزة في الاصطلاح: فهي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة يجر به الله على يد نبيه، شاهداً على صدقه[(٣)].

وقد ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات (عجز) بمعنى الضعف ـ وهو المعنى الذي نريد ـ تسع عشرة مرة[(٤)]، لكنه لم يرد هذا المصطلح في القرآن بالمعنى الذي هو أمر خارق للعادة... إلخ.

ولم يعرف إطلاق «المعجزة» على هذا المقصود إلا في أواخر القرن الثاني تقريباً[(٥)].

لكن المعنى ورد في القرآن بألفاظ أُخَر، مثل: البينة، والآية، والبرهان، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ

(١) معجم مقاييس اللغة ص٧٣٨.
(٢) القاموس المحيط مادة (عجز).
(٣) انظر: الإتقان للسيوطي (٢/٢٣٨).
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٥٤٨.
(٥) مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ص١٣، (نقلاً عن دراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٥٨).

نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

* * *

المبحث الثاني:

عناية العلماء بإعجاز القرآن

من أول نزول القرآن، انتبه الناس إلى إعجازه، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا الإتيان بمثله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ولكن التصنيف المستقل في هذا الفن بدأ تقريباً في القرن الرابع، فهذا محمد بن زيد الواسطي (ت٣٠٧هـ) هو أول من نعلمه ألف في هذا الفن[١]، ثم تتابعت التصانيف الكثيرة في هذا الفن، وممن صنف فيه من المتقدمين[٢]:

١ - النكت في إعجاز القرآن: لأبي الحسن علي بن عيسى الرمّاني (ت٣٨٤هـ)، وهي رسالة مختصرة جاءت جواباً لسؤال عن ذكر النكت في إعجاز القرآن، وهي مطبوعة متداولة.

٢ - بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان حَمْد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ)، وهي مطبوعة مشهورة.

---

(١) انظر: الأعلام للزركلي (١٣٢/٦)، دراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٦٦.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (٢٣٨/٢)، دراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٦٧.

٣ ـ إعجاز القرآن: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، مطبوع بتحقيق عماد الدين أحمد حيدر.

٤ ـ الرسالة الشافية: لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، مطبوعة.

٥ ـ دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني أيضاً، مطبوع بتحقيق: أحمد مصطفى المراغي، وطبع أيضاً بتحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، وحققه أيضاً العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦ ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: للفخر أبي عبدالله محمد بن عمر الرازي، (ت٦٠٦هـ)، مطبوع قديماً.

٧ ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: لعبدالواحد الزملكاني (ت٦٥١هـ)، طبع بتحقيق د. خديجة الحديثي، ود. أحمد مطلوب بالعراق. وللزملكاني أيضاً كتاب (التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز في القرآن)، مطبوع أيضاً.

وغير ذلك من الكتب الكثيرة قديماً وحديثاً. ولا شك أن كثرة الكتب في إعجاز القرآن ـ وقل مثلها في التفسير التي فيها أنواع من الإعجاز ـ ليؤكد أن بحر الإعجاز في القرآن لن ينضب، وأن الناس لا يزالون ينهلون من معينه.

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٩٣هـ): ـ والقرآن معجز من الجهة الثالثة[1] للبشر قاطبة، إعجازاً مستمراً على مر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين؛ لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية

(١) يقصد ما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، فقد جعلها الجهة الثالثة، الأولى: بلوغ الغاية القصوى في الكلام العربي البليغ، والثانية: وأنا بين التصرف في الكلام قلت القرآن معجزة إعجازاً مستمراً على مرّ العصور من الجهات الثلاثة كما لا يخفى، والله أعلم.

بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحِكْمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك. اهـ[(١)].

ولعل في قول النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً، أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[(٢)]، إشارة إلى أن معجزة القرآن خالدة في الدنيا إلى أن يشاء الله ﷻ.

يقول الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله (ت٩١١هـ) ـ معلقاً على هذا الحديث ـ: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقُه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه. اهـ[(٣)].

❋ ❋ ❋

المبحث الثالث:

أوجه الإعجاز في القرآن

لا شك أن القرآن معجز، وأن البشر عجزوا وضعفوا، ولم يستطيعوا أن يأتوا بآية ولا بسورة ولا بأقل ولا بأكثر من ذلك: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) مقدمة التحرير والتنوير ـ المقدمة العاشر ـ ص١٠٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي برقم ٤٩٨١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم ١٥٢.

(٣) الإتقان (٢/٢٣٨).

لكن ما هو المعجز في القرآن، وأين وجه الإعجاز فيه، هل هو لفظه؟

ثم إذا كان المعجز منه اللفظ فأي شيء هو المعجز في اللفظ؟ مع أنه يتكلم بلسان العرب، وبلغة العرب وبشيء تفهمه العرب؟ أم أن المعجز ما تضمنه من علوم غيبية سواءً في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل؟

تكلم أهل العلم قديماً وحديثاً حول أوجه الإعجاز في القرآن، فبعضهم ذكر وجهاً واحداً، وآخر ذكر وجهين، وبعضهم أكثر من ذلك، بل قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعضهم أنهى وجوه إعجازه إلى ثمانين وجهاً... والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»[(١)].

وقول السيوطي هذا ظاهر جداً، وأنه لا وجه لحصر إعجاز القرآن في بعض الأوجه دون بعض؛ لكن ذكر هذه الأوجه يُعين على المقصود بالكلام في إعجاز القرآن، ويوضح صور إعجازه أكثر فمما قاله أهل العلم في ذلك:

يقول القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن كتاب الله عزيزٌ، منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه، والتئام كَلِمِه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحِكَم بما لم يخص غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان[(٢)]، ما لم يؤت إنسان، ومن فضل الخطاب ما يقيد الألباب، فما راعهن إلا رسول كريم، بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/٥)، (نقلاً من دراسات في علوم القرآن ص٢٧٢).

(٢) ذرابة اللسان: حدته... القاموس المحيط مادة (ذرب).

من خلفه، أحكمت آياته، وبهرت بلاغته العقول، صارخاً بهم في كل حين، ومقرعاً لهم بضعة وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس: ٣٨]، فلم يزل يقرعهم أشد التقريع، ويوبخهم أشد التوبيخ.

الوجه الثاني: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه.

والإعجاز بكل واحدٍ من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منها نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحدٍ منهما.

الوجه الثالث: ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر به، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان كذلك على كثرة مَنْ رام ضُره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة صحيحة.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم.

ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى

صحيحاً ولا سقيماً من صحفه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥].

فهذه الوجوه الأربعة من إعجاز بيِّنة لا نزاع فيها ولا مرية.

ومن الوجوه البينة في إعجازه - من غير هذه الوجوه - آي وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك، كقوله لليهود: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥].

ومنها: - أي: من وجوه إعجازه - الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله.

ومنها: كونه آيةً باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

وقد عد جماعة من الأئمة في إعجازه وجوهاً كثيرة، منها: أن قارئه لا يمله وسماعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة.

ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم.

ومنها: جمعه بين الدليل ومدلوله، وذلك أنه إذا احتج بنظم القرآن، وحسن وصفه، وإيجازه، وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة، أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد، وسورة متفردة.

ومنها: أنه جعله من حيز المنظوم الذي لم يعهده، ولم يكن في حيز المنثور؛ لأن المنظوم أسهل على النفس وأوعى للقلوب.

ومنها: تيسير حفظه لمتعلميه، وتقريبه على متحفظيه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضاً، وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى... إلخ كلامه[١].

فهذا كلام نفيس من الإمام القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو واضح في أن وجوه إعجاز القرآن كثيرة لا حصر لها، وهي كذلك لأنه من عند الله ، والله على كل شيء قدير، والباب مفتوح لمن أراد أن يستخرج وجوهاً للإعجاز، شريطة أن لا يخرج عن ضوابط عقيدة أهل السنة والجماعة في المعجزة، وأن تساعده اللغة، وألا يتكلف في وجوه الإعجاز التي يذكرها، والله أعلم.

(١) الشفا (١/١٩٧ ـ ٢١٣) ملخصاً.

الفصل الثالث

دلائل الإعجاز في القراءات

المبحث الأول: اختلاف القراءات وثبات هذا الاختلاف على مر العصور.

المبحث الثاني: احتمال رسم المصحف للقراءات المختلفة.

المبحث الثالث: لا تضاد بين القراءات مع اختلافها.

المبحث الرابع: الإعجاز البلاغي في القراءات.

نقصد بدلائل الإعجاز في القراءات: أوجه الإعجاز التي تُلتمس من القراءات، يقول شيخنا الدكتور سليمان الصادق البيرة: وتسمية هذا الفن بدلائل الإعجاز ـ أو مظاهر الإعجاز، وتسميته دلائل أحب إليَّ ـ أقرب إلى الواقع من تسميته الإعجاز في القراءات مثلاً. اهـ[١].

نعم، إن الإعجاز في القرآن كله له مظاهر كثيرة جداً، وقد تقدم النقل عن بعض أهل العلم في ذلك[٢]، لذا عندما نسميها دلائل الإعجاز، أو مظاهر الإعجاز فنحن بذلك لا نحصر الإعجاز في هذه المظاهر والدلائل التي ذكرنا، بل هذا التعبير يجعل المجال مفتوحاً لمن أراد أن يضيف إلى هذه الدلائل والمظاهرِ، دلائلَ ومظاهرَ أخرى، ولا يخفى على أن هذا اسم كتاب مشهور جداً في هذا الفن لعبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)[٣]، وسلفنا رحمهم الله أكثر علماً وفقهاً ممن تبعهم، ولا يزال العلم في نقص ولا يزيد كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) سمعتها منه في محاضراته بالجامعة.

(٢) انظر: المبحث الثالث من الفصل الثاني في هذا البحث.

(٣) وتقدمت الإشارة إلى هذا الكتاب في الكلام على عناية العلماء بإعجاز القرآن في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

ثم إن تسميته دلائل الإعجاز أكثر أدباً مع القرآن الذي هو كلام الله ، وحاشا أن يحيط أحد علماً بكتاب الله، ولعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. إشارة إلى مثل هذه المعاني.

وبَعْدُ، ففي المباحث التالية بعض دلائل الإعجاز الواقعة في كتاب الله ﷻ، وعلى وجه الخصوص الدلائل الظاهرة في القراءات القرآنية.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول:

اختلاف القراءات وثبات هذه الاختلاف على مر العصور

لا يخفى على من له أدنى اشتغال بالقراءات أن القراءات تختلف، وأحياناً تصل إلى عدة أوجه في الكلمة الواحدة، وأن هناك من كلمات القرآن ما لا يدخله الاختلاف، فليست القراءات متعددة في كل كلمة من القرآن.

والمعجز في هذا الوجه هو أن أوجه الخلاف بين القراء ثابتة لم تنقص ولم تزد، وأن اختلاف القراء الذي دوَّنه العلماء منذ عصور الإسلام الأولى هو عينه الخلاف الموجود الذي يقرأه دارسو القراءات في زماننا هذا، وأن الكلمات التي لم يدخلها الخلاف بين القراء بقيت كما هي لم يدخلها اختلاف إلى زماننا هذا، باستثناء بعض القراءات الشاذة التي لا يذكرها أكثر المصنفين في القراءات، ويتعب طالب العلم حين يجد أحداً من العلماء قد ذكر هذه القراءة الشاذة، حتى أنه في كثير من الأحيان يذكر أحد العلماء قراءة شاذة، ولا نجد ـ فيما بين أيدينا من المصادر ـ من يشير إلى هذه القراءة من قريب ولا بعيد، وهذا يزيد هذا الوجه من الإعجاز قوةً وثباتاً، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

نعم، لقد اختلفت القراءات في نطقها، وبعضها في معانيها؛ لكنه اختلاف منضبط، واختلاف تنوع لا اختلاف تضاد يوافق بعضه بعضاً، ويؤيد بعضه بعضاً لا اختلاف تضاد وتنافر وتضارب، يقول الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٥٤) معلقاً على هذه الآية أي: لو كان من عند محمد بن عبدالله القرشي ﷺ لا من عند الله الذي أرسله به، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، لعدم استطاعته، واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق بصورته كما هي لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها، وإن تعجب فعجب أن تمر السنون والأحقاب، وتكر القرون والأجيال، وتتسع دوائر العلوم والمعارف، وتتغير أحوال العمران، ولا ينقص كلمة من كلمات القرآن، لا في أحكام الشرع ولا في أحوال الناس وشؤون الكون، ولا في غير ذلك من فنون القول. اهـ[1].

ثم انظر إلى الكتب المدونة في القراءات، انظر إلى ما طبع منها ـ وما لم يطبع أكثر بكثير ـ ثم قلب النظر فيها، هل ترى بينها تفاوت واختلاف، مبتدئاً بالإمام أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، في كتابه «السبعة»، ومنتهياً إلى كتب القراءات المؤلفة في زماننا ككتاب البدور الزاهرة للشيخ عبدالفتاح القاضي (ت١٤٠٣هـ)، ستجدها متحدةً في بيان أوجه الخلاف بين القراء، بل إنك تجدها متحدة في عزو هذه القراءة لهذا القارئ، وتلك القراءة الأخرى للقارئ الآخر، حتى إن من الناس من يقول: لا فائدة في طبع كتب القراءات الأخرى لأنها نسخة مكررة من هذه الكتب الموجودة. . . !!

وهذا على أيّة حال يدلنا على ثبوت القراءات، وأنها من عند الله سبحانه وتعالى.

(١) تفسير المنار (٢٨٨/٥ ـ ٢٨٩).

ومن شأن الاختلاف أن يزداد عبر الدهور، ويكبر مع مرور السنين والأيام، فهذه كتب الفرق القديمة تذكر اختلافاً كبيراً بين الفرق الإسلامية التي ظهرت في وقت مبكر(١)! وبعض هذه الفرق تندثر، ولا يكاد يُسمع لها خبير، حتى في الكتب.

إذاً؛ نشأ الاختلاف وكبر وزاد وتشعب واندثر كثيرٌ منه؛ لأنه على باطل، وليس على هدى من الله، بينما نجد أهل السنة والجماعة متفقين فيما بينهم في أدق أمور العقيدة، منذ أن بُعث النبي ﷺ إلى زماننا هذا، بل إلى قيام الساعة.

وهذا الذي ذكرته من الاختلاف بين الفرق، إنما هو مثل لبيان أن طبيعة الاختلاف بين الناس أنه يزداد على مرور الليالي والأيام، بينما نجد الخلاف بين القراء ثابت لا يتغير، ولن يتغير حتى يُرفع الله هذا الكتاب إليه في آخر الزمان كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ(٢).

بل إذا نظرنا إلى «الكتاب المقدس» عند أهل الكتاب اليهود والنصارى نجد كيف أن الخلاف والاضطراب يزداد مع مرور الدهور، وذلك لأنه اختلاف من البشر(٣)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

* * *

(١) انظر مثلاً: كتاب الْفَرْقُ بين الْفِرَق للبغدادي، والملل والنحل للشهرستاني، انظر: ما كتبا عن الاختلاف الواقع بين الخوارج أنفسهم وكذا الرافضة وغيرها من الفرق.

(٢) كما في سنن ابن ماجه ٤٠٤٩، ومستدرك الحاكم (٥/٧٥٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٨٧.

(٣) انظر مثلاً: كتاب التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة للدكتورة سارة العبادي، طبع دار طيبة الخضراء، بمكة.

المبحث الثاني:
احتمال رسم المصحف للقراءات المختلفة

الرسم في اللغة الأثر[(١)]:

والمراد بالرسم هنا: الوضع الذي ارتضاه عثمان ﷺ في عهده في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه، حينما أمر بنسخ المصاحف[(٢)].

ومعلوم أن علم رسم المصحف علم مستقل بذاته وله كتب مصنفة في هذا الباب قديماً وحديثاً[(٣)].

وقد ذكر العلماء أن من فوائد الرسم العثماني «الدلالة على القراءات المختلفة المتنوعة في الكلمة الواحدة برسم واحد قدر الإمكان»[(٤)]، وهنا يظهر وجه الإعجاز، حيث يحتمل رسم واحد قراءات مختلفة المعنى مختلفة النطق ـ ومعلوم أن الرسم في زمن الصحابة لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً ـ هذا في نهاية الإعجاز، فلا يقدر أحد من البشر أن ينظم كلاماً طويلاً يختلف نطقه ومعناه ويحتمله رسم واحد، ولو أنه اتخذ رسم المصحف قاعدةً له في ذلك؛ إلا في نزرٍ يسير مثل بناء الفعل للفاعل وبنائه للمفعول، وما أشبه ذلك من الأمور اليسيرة.

ولنأخذ على ذلك مثلاً من السنة ـ التي هي بعد القرآن منزلة في الاحتجاج ـ والتي قد حفظت حفظاً عظيماً في تدوينها ونطقها وشروحها وغير ذلك، وصنفت مصنفات خاصة بكيفية تدوين السنة، وحتى هذه المصنفات في تدوين السنة تنقسم إلى فنون عدة، فهذا فن المصطلح، وهذا

---

(١) القاموس المحيط مادة (رسم).

(٢) مناهل العرفان (١/٣٠٠). وانظر: البرهان للزركشي (١/٤٥٧).

(٣) منها: كتاب المقنع لأبي عمرو الداني (مطبوع)، والطراز في شرح ضبط الخراز لأبي عبدالله محمد بن عبدالله التونسي (مطبوع)، ومسير الطالبين للضباع (مطبوع) وغيرها.

(٤) انظر: صفحات في علوم القراءات ص١٤٠.

فن الرجال، وهذا فن شروح الأحاديث وغير ذلك، لو أخذنا قصة واحدة منها في أصح كتب السنَّة ـ صحيح البخاري ـ نجد حتى رواة الصحيح اختلفوا في بعض الكلمات وإسقاط كلمات أخرى، أو زيادتها، أو إبدالها كلمة بأخرى.

مع يقيننا أن السنة محفوظة بحفظ الله، ولكن هذه الاختلافات اليسيرة لا توجد في القرآن.

فلم يحتمل رسم الحديث بعض الاختلافات الواردة في القصة، بل لا بد من الحذف والإضافة والتغيير في بنية الكلمة ورسمها.

ثم لم نجد أحداً ممن ادعى النبوة، بعد رسول الله ﷺ على كثرتهم من زعم أنه أتى بكتاب تختلف بعض كلماته اختلافاً لا تضاد فيه، ثم يحتمله رسم واحد، كما هو موجود في كتاب الله جل وعلا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

الأمثلة على ذلك من القراءات:

أما الأمثلة فهي كثيرة جداً، وطالب القراءات في غنى عنها؛ لكن لا بد من التمثيل ليتضح المقال:

١ ـ في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] قرأ حمزة والكسائي: ﴿**فتثبتوا**﴾ وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وكلا القراءتين يحتملهما الرسم، لأنها غير منقوطة ولا مضبوطة بالشكل بل ترسم هكذا (فسموا).

٢ ـ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قرأ شعبة وحمزة والكسائي: ﴿**يَطَّهَّرن**﴾ بفتح الطاء والهاء مع تشديدهما، وقرأ الباقون: ﴿يَطۡهُرۡنَ﴾ بإسكان الطاء وضم الهاء[1].

---

(١) انظر: التيسير ص٦٨.

فمن قرأ بالتشديد معناه يغتسلن بالماء، لأن الحائض لا يجوز وطؤها - في قول أكثر أهل العلم - إذا انقطع الدم عنها حتى تغتسل بالماء.

ومن قرأ بالتخفيف فمعناه حتى ينقطع الدم، وحكمه كحكمها الأول؛ لأن بعده ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يعني بالماء[١].

فهاتان القراءتان لهما معنيان مختلفان وعليهما بنى كل فريق من أهل العلم قوله في خلافهم في إتيان الحائض قبل الاغتسال[٢]، ومع ذلك احتملها رسم واحد، لأنها رسمت بلا نقط ولا شكل (يطهرن).

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث:

لا تضاد بين القراءات مع اختلافها

اختلاف القراءات لا يخلو من ثلاثة أحوال[٣]:

أحدها: اختلاف اللفظ والمعنى واحد، وذلك مثل (السراط) بالسين، و(الصراط) بالصاد، (والزراط)، بإشمام الصاد صوت الزاي[٤].

الثاني: اختلاف اللفظ والمعنى جميعاً، مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

(١) شرح الهداية للمهدوي (١/١٩٨).

(٢) انظر: المسألة في تفسير القرآن للطبري (٢/٥٢٤)، وتفسير القرطبي وغيرهما.

(٣) انظر: النشر (١/٢٩)، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام لبازمول (١/١٧٦).

(٤) قرأ خلف (الصراط) بإشمام الصاد الزاي، وخلاء بإشمامها الزاي في الفاتحة فقط، وقنبل بالسين حيث جاء في القرآن، والباقون بالصاد، التيسير ص٢٧.

مثاله: قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠][(١)]، بتخفيف الذال وتشديدها، فالمراد بهاتين القراءتين جميعاً هم المنافقون، وذلك لأنهم كانوا يكذبون في أخبارهم، ويكذّبون النبي ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، فالأمران جميعاً، مجتمعان لهم، فأخبر الله تعالى بذلك عنهم وأعلمنا أنه معذبهم بهما في آية واحدة بقراءتين[(٢)].

الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

مثاله: ـ قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾[(٣)] [يوسف: ١١٠] بالتشديد.

فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم.

وقراءة من قرأها بالتخفيف، فالمعنى: توهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبرهم به من أنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل العذاب بهم.

فالظن في الآية على القراءة الأولى بمعنى اليقين، والضمير الأول واو الجماعة في (ظنوا) للرسل، والضمير الثاني، واو الجماعة في (كذبوا) للمرسل إليهم. والظن في القراءة الثانية بمعنى الشك، والضمير الأول لَلمرسل إليهم، والثاني للرسل[(٤)].

فهذه أمثلة متنوعة لاختلاف القراءات ولا نجد بينهما تضاد وتنافر في المعنى، بل بينهما الالتئام والاتفاق، بل بعض القراءات تكشف وتفسر القراءة الأخرى[(٥)]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ):

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الياء وتشديد الذال، والباقون بفتح الياء وتخفيف الذال، التيسير ص٦٢.

(٢) انظر: حجة القراءات ص٨٨ ـ ٨٩.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بتشديد الذال، والباقون بالتخفيف التيسير ص١٠٦.

(٤) حجة القراءات ص٢٦٦، القراءات وأثرها في التفسير ص١٧٨.

(٥) انظر أمثلة ذلك في كتاب: «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» ص٤٠١ فيما بعد.

ولا نزال بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده، بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً، كما قال عبدالله بن مسعود: إنما هو كقول أحدكم: أقبل، وهلم، وتعالى.

وقد يكون المعنى أحدهما ليس هو معنى الآخر؛ لكن كلام المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض.

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبايناً من وجه كقوله: (يَكْذِبون ويُكَذِّبون)[١] ونحوها، فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق، وكل قراءة مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، وإتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً. اهـ[٢] ملخصاً.

ويقول الإمام ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٣٣هـ):

وأما حقيقة هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي ﷺ وفائدته، فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. اهـ[٣].

هذا، مع أننا نرى في كلام الناس ما يتغير معناه بتغير ضبطه، أو بزيادة حرف أو نقصه أو غير ذلك؛ بل ربما انقلب المعنى إلى الضد بهذا التغير، والأمثلة على ذلك في كلام الناس أكثر من أن تُحصى، ولنأخذ على ذلك مثلاً واحداً يوضح هذه المقولة:

---

(١) تقدم قريباً ما فيها من القراءات.
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٩١).
(٣) النشر (١/٤٩).

لو قلنا: ضرب محمد خالداً.

فإذا غيَّرنا قلنا: ضرب محمداً خالدٌ.

فهذا التغيير قلب المعنى رأساً على عقب، فبعد أن كان الضارب محمداً في المثال الأول، صار مضروباً في المثال الثاني وتغير المعنى، وقس على ذلك أمثلة كثيرة في كلام العرب قديماً وحديثاً.

بينما نجد القراءات مع تنوعها وتغيرها لم يتطرق إليها التناقض والتضاد، وحتى لو أدخلنا القراءات الشاذة وهي كثيرة جداً، لا نجد بينها وبين القراءات المتواترة تناقض أو تضاد.

ولهذا نجد القراء يتفقون على قراءة واحدة، إذا كانت ثم وجه لا يستقيم المعنى به، أو يؤدي إلى معنى فاسد.

يقول العلامة أحمد بن يوسف السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٥٦هـ): قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]، فإنه لم يُختلف في رفعه، قالوا: لأن نصبه يؤدي إلى فساد المعنى لأن الواقع خلافه، وذلك أنه لو نصبته لكان التقدير: فعلوا كل شيء في الزبر، وهو خلاف الواقع، إذ في الزبر أشياء كثيرة جداً لم يفعلوها. وأما قراءة الرفع فتؤدي أن كل شيء فعلوه هم، ثابت في الزبر، وهو المقصود، فلذلك اتفق على رفعه. اهـ[(١)].

فهذا الاتفاق في المعاني وعدم التضاد في القراءات يؤكد أن هذا الكتاب العزيز أحكمت آياته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

❋ ❋ ❋

(١) الدر المصون (١٤٩/١٠).

المبحث الرابع:

الإعجاز البلاغي في القراءات(١)

نعني بالإعجاز البلاغي في القراءات ما في أوجه القراءات من البلاغة التي وصلت الذروة، بل عجز العرب أن يأتوا بمثلها مع تحدي القرآن لهم في ذلك وتوبيخهم وتقريعهم.

وهذا النوع من الإعجاز تفطن له العلماء قديماً، وكتبوا عنه كثيراً، حتى قال أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابي رحمه الله (ت٣٨٨هـ): وزعم آخرون أن إعجازه ـ أي: القرآن ـ من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر(٢). اهـ.

ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله (ت١٣٩٣هـ): الجهة الأولى ـ من جهات إعجاز القرآن ـ بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ، من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة، ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب، مما لا يفيده أصل وضع اللغة،

---

(١) خرجت بعض الدراسات تُعنى بجانب البلاغة في القراءات أو الإعجاز البلاغي فيها، ومن هذه الدراسات:

١ ـ التوجيه البلاغي في القراءات القرآنية، رسالة دكتوراه لعبدالله حسن عليوه، بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر.

٢ ـ مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي، بحث للدكتور محمد إبراهيم شادي.

٣ ـ البلاغة في القراءات الشاذة عند ابن جني في المحتسب، بحث للدكتور عبدالمنعم الأشقر.

٤ ـ التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، رسالة دكتوراه للدكتور أحمد سعد محمد طبعت بمكتبة الآداب بالقاهرة.

وأما كتاب «إعجاز القراءات القرآنية» لصبري الأشوح، فقد تقدم الكلام عنه في المقدمة، وأنه لا علاقة له بهذا الموضوع، وإن كان عنوان الكتاب يوحي بذلك، انظر مقدمة هذا البحث.

(٢) بيان إعجاز القرآن ص٢٤، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

المبحث الرابع:

الإعجاز البلاغي في القراءات[1]

نعني بالإعجاز البلاغي في القراءات ما في أوجه القراءات من البلاغة التي وصلت الذروة، بل عجز العرب أن يأتوا بمثلها مع تحدي القرآن لهم في ذلك وتوبيخهم وتقريعهم.

وهذا النوع من الإعجاز تفطن له العلماء قديماً، وكتبوا عنه كثيراً، حتى قال أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطابي رَحِمَهُ اللهُ (ت٣٨٨هـ): وزعم آخرون أن إعجازه ـ أي: القرآن ـ من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر[2]. اهـ.

ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ (ت١٣٩٣هـ): الجهة الأولى ـ من جهات إعجاز القرآن ـ بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ، من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة، ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب، مما لا يفيده أصل وضع اللغة،

---

(١) خرجت بعض الدراسات تُعنى بجانب البلاغة في القراءات أو الإعجاز البلاغي فيها، ومن هذه الدراسات:

١ ـ التوجيه البلاغي في القراءات القرآنية، رسالة دكتوراه لعبدالله حسن عليوه، بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر.

٢ ـ مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي، بحث للدكتور محمد إبراهيم شادي.

٣ ـ البلاغة في القراءات الشاذة عند ابن جني في المحتسب، بحث للدكتور عبدالمنعم الأشقر.

٤ ـ التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، رسالة دكتوراه للدكتور أحمد سعد محمد طبعت بمكتبة الآداب بالقاهرة.

وأما كتاب «إعجاز القراءات القرآنية» لصبري الأشوح، فقد تقدم الكلام عنه في المقدمة، وأنه لا علاقة له بهذا الموضوع، وإن كان عنوان الكتاب يوحي بذلك، انظر مقدمة هذا البحث.

(٢) بيان إعجاز القرآن ص٢٤، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

بحيث يكثر فيه ذلك كثرةً لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم[1]. اهـ.

والإعجاز البلاغي في القراءات له أوجه كثيرة جداً، لم يأتِ بها كلام أحد من البشر من لدن آدم عليه السلام إلى زماننا هذا إلى قيام الساعة، أعني أن أحداً من البشر لم يأت بكلام على أوجه مختلفة تحتوي هذه الأوجه أنواعاً من البلاغة، كما هو موجود في كتاب الله عز وجل بقراءاته المتواترة والشاذة أحياناً فكم من اختلاف القراءات من أوجه البلاغة كالخروج عن مقتضى الظاهر، أو الحذف والذكر، أو بلاغة الكلمة في التعريف تارة والتنكير أخرى، أو التقديم والتأخير، أو الربط بين الجمل والكلمات بأدوات مختلفة لكل واحدة منها معنى مختلف، وهكذا[2].

المثال على ذلك:

١ ـ أسلوب التعريف والتنكير كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾[3] [النمل: ٨٩]، يقول الدكتور أحمد سعد محمد: اختلاف العلماء في توجيه قراءتَيْ: تنكير ﴿فَزَعٖ﴾ وتعريفه بالإضافة، قد أدى تعدد وجوههما البلاغية التي استدعاها في الأساس استقراؤها لأحوال الكلمة داخل سياقها القرآني، واعتبار الأحوال المحيطة بها.

فاختار الفرّاء والطبري الإضافة لأنه فزع معلوم، وإذا كان كذلك كان معرفة، على أن ذلك في سياق قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي

---

(١) المقدمة العاشرة من مقدمات التحرير والتنوير ص١٠٤.

(٢) انظر هذه الأوجه مثبوتة في كتاب د. أحمد سعد محمد «التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية».

(٣) قرأ نافع بفتح الميم في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ وقرأها بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي والباقون بدون تنوين. التيسير ص١٣٨.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1] [النمل: ٨٧]، فإذا كان كذلك فمعلوم أنه عني بقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، من الفزع الذي جرى ذكره قبله.

ويرى أبو زرعة (ت بعد ٣٠٤)[2] أن حجة من نوَّن: هي أن النكرة أعم من المعرفة؛ لأن ذلك يقع على ﴿فَزَعٍ﴾ وهو أعم وأكثر؛ لأنك إذا قلت: «رأيت رجلاً»، وقع على كل رجل، وكذا إذا قلت: «رأيت غلاماً»، فإذا قلت: «رأيت غلامك»، حضرت الرؤية على شخص واحد. اهـ[3].

٢ ـ أسلوب الالتفات: وهذا كثير في القرآن والقراءات خاصة، يقول العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (ت٥٣٨هـ): الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩]. . . وقد التفت امرؤ القيس[4] ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالإثمد ... ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأمرد
وذلك من نبإ جاءني ... وخُبْرَته عن أبي الأسود

ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/٣٠١)، وتفسير الطبري (٢٢/٣٠)، وكلاهما ـ أي: الفراء والطبري ـ صوّب القراءتين لكن فضلا قراءة الإضافة التي تفيد التعريف.

(٢) انظر: حجة القراءات ص٥٤٠.

(٣) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ص١٤٤.

(٤) قال ابن هشام: ليس هو امرؤ القيس بن حجر الجاهلي، بل هو امرؤ القيس بن عباس الصحابي. اهـ. نقلاً عن حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على الكشاف (١/٢٤).

تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. اهـ[(١)].

المثال على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٧٤ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ٧٤، ٧٥].

قرأ ابن كثير: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالياء، أي: وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء الذين اقتصصنا عليكم قصصهم أيها المسلمون.

وقرأ الباقون: بالتاء، على الخطاب، وحجتهم قوله قبلها: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٧٤﴾[(٢)] [البقرة: ٧٤].

وعلى كلا القراءتين نجد الالتفات قد حصل في الآية، أما من الغيبة إلى الخطاب، وأما من الخطاب إلى الغيبة.

(١) الكشاف (١/٢٣ ـ ٢٤) عند تفسيره الآية: ٥ من الفاتحة.

(٢) انظر: حجة القراءات ص١٠١ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بعد هذا البحث المتواضع أكون قد خرجت ببعض النتائج، ورسخت بعض النتائج الأخرى؛ منها:

١ ـ علاقة القراءات بالقرآن هي علاقة الجزء بالكل، إذ ليست كل آيات القرآن فيها قراءات.

٢ ـ أعظم فائدة للقراءات التخفيف على هذه الأمة بكثرة الأوجه في القراءة.

٣ ـ لم ترد كلمة «المعجزة» في نصوص الكتاب والسنَّة وأقوال الصحابة والتابعين، لكنها وردت بلفظ «الآية، البرهان».

٤ ـ التصنيف في الإعجاز القرآني جاء مبكراً.

٥ ـ أوجه الإعجاز في القرآن كثيرة، وبعضها أوضح وأقوى من بعض، ويستطيع طالب العلم أن يستخرج أوجهاً أخرى لإعجاز القرآن، وإن لم يذكرها المتقدمون، بشرط التقيد بقواعد أهل السنة في مبحث الإيمان بالكتب وغيرها من مباحث العقيدة، وبشرط عدم التكلف في الأوجه التي يذكرها.

٦ ـ قولنا: «دلائل الإعجاز» أكثر واقعية وتأدباً مع القرآن من قولنا: «الإعجاز في القرآن».

٧ ـ مع أن من طبيعة البشر كثرة الاختلاف ونموه وازدياده مع الأيام، إلا أن الاختلاف في القراءات ظل ثابتاً عند أئمة القراءات المعنيين بهذا الشأن.

٨ ـ احتمال رسم المصحف للقراءات المختلفة من أوجه الإعجاز في هذا الشأن.

٩ ـ مع كثرة القراءات وتنوعها إلا أنها متفقة المعاني، وغاية الاختلاف بينها أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

١٠ ـ دلائل الإعجاز البلاغي في القرآن كثيرة جداً، ودارس البلاغة سيجد القرآن مكاناً خصباً لتطبيق أنواع البلاغة وأبوابها، وهذا ما فعله البلاغيون المتقدمون والمتأخرون.

والحمد لله رب العالمين